سلسلة الكتب النادرة (١)



الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

مكتبة الحرم المكي الشريف

الصفات

للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

تنفيذ

إدارة المطبوعات والنشر

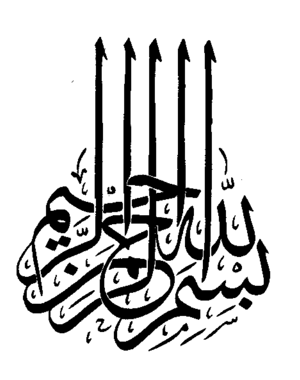




للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي

ت: ١٣٩٣هـ

إدارة المطبوعات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، فهذا سفر صغير الجمع، عظيم القدر، كبير النفع، من عالم راسخ، وعلّامة موفق، تعرض فيه لمسألة عظيمة كثر فيها الخلط وعظم فيها الزلل، من طوائف يدّعون النباهة والتعقل قد زلت بهم القدم في هذا الباب؛ ألا وهو باب توحيد أسماء الله وصفاته، فقالوا على الله بلا علم، واعترضوا على وحي معصوم، وتمسكوا بمعقول موهوم، بدعوى التعارض بينهما تارة، وبدعوى التنزيه عن التشبيه تارة، إلى غير ذلك، فجاء هذا السفر ليجلي لنا منهج السلف الصالح لأهل السنة والجماعة في هذه المسألة، معتمدًا فيما يؤصله على الكتاب والسنة.

وأصل هذا الكتاب هو محاضرة ألقاها الشيخ في الجامعة الإسلامية، وقد رأت مكتبة الحرم المكي الشريف بالتعاون مع إدارة المطبوعات والنشر إعادة طباعة الكتاب

بعـد المراجعـة والتدقيق. لمـا فيه من النفع والهـدى والبيان والإرشـاد. نسـأل اللـه عز وجـل أن يجعل المثوبـة لكل من سـاهم في نشـرها وأن ينفـع قارئها. وصلى الله وسـلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

✍ د.وليد بن صالح باصمد
مدير مكتبة الحرم المكي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنّا نريد أن نوضح لكم معتقد السلف والطريق الذي هو المنجاة نحو آيات الصفات..

أولا: اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع، من البدع التي يكرهها السلف.

اعلموا أن مبحث آيات الصفات دلَّ القرآن العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخلّ بواحدٍ من تلك الأسس الثلاثة فقد ضل، وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم،

أحد هذه الأسس الثلاثة[1]:

١. تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيءٌ من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين، وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص ٤] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل ٧٤]

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه لأنه لا يصف اللهَ أعلمُ باللهِ من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة ١٤٠] والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف اللهَ بعد الله أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم].

فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، ويُنزِّهَ ربه جلَّ وعلا عن أن تشبه صفته صفة الخلق، وحيثُ أخلَّ بأحد هذين الأصلين وقع في هوّة الضلال؛ لأن من تنطع بين يدي ربِّ السماوات والأرض

---

(١) ذكر الشيخ رحمه الله هنا اثنين من هذه الأسس، وأما الثالث وهو: قطع الطمع عن إدراك الكيفية. فتكلم عليه في آخر المحاضرة.

وتجرأ على الله بهذه الجراءة العظيمة ونفى عن ربه وصفاً أثبته ربه لنفسه؛ فهذا مجنون، فالله جلَّ وعلا يثبت لنفسه صفات كمالٍ وجلال، فكيف يليق بمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي ربّ السماوات والأرض، ويقول: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك ويلزمه من النقص كذا وكذا فأنا أؤوله وألغيه وآتي ببدله[1] من تلقاء نفسي من غير استناد إلى كتاب وسنة! سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظنَّ أن صفة خالق السماوات والأرض تشبه شيئاً من صفات الخلق فهذا مجنونٌ جاهلٌ ملحدٌ ضالٌّ، ومن آمن بصفات ربه جلَّ وعلا مُنزِّهاً ربه عن مشابهة صفات الخلق فهو مؤمنٌ منزّهٌ، سالمٌ من ورطة التشبيه والتعطيل، وهذا التحقيق هو مضمون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١]

فهذه الآية فيها تعليمٌ عظيمٌ يحلُّ جميع الإشكالات، ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع؛

ذلك بأن الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١] بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١] ومعلوم أن

(١) في الشريط: (فأنا أؤول وأنفي وآتي ببدل).

السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأنَّ الله يشير للخلق ألّا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره؛ بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس[1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١].

فالله جل وعلا له صفات لائقةٌ بكمالِه وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شكَّ فيه؛ إلّا أن صفة رب السماوات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين، فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه، فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله! سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظنَّ أن صفة ربه تشبه شيئاً من صفة الخلق فهذا مجنونٌ ضالٌّ ملحدٌ لا عقلَ له، يدخل في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء] ومن يسوي رب العالمين بغيره فهو مجنون!

---

(١) في الشريط: (فكأنَّ الله يشير للخلق بأن يقول: لا تنفوا عني صفة سمعي وبصري، بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه! لا وكلا! بل أثبتوا لي صفة سمع وصفة بصر على أساس..).

تقسيم المتكلمين للصفات والرد عليهم

ثمَّ اعلموا أن المتكلمين الذين خاضوا في الكلام وجاؤوا بأدلّة يسـمونها أدلة عقلية، ركبوها في أقيسـة منطقية، قسموا صفات الله جل وعلا إلى ستة أقسام قالوا هناك:

١. صفة نفسية. ٢. صفة معنى.

٣. صفة معنوية. ٤. صفة فعلية.

٥. صفة سلبية. ٦. صفة جامعة.

أما الصفـات الإضافيـة، فقد جعلوهـا أمـوراً اعتبارية لا وجـود لهـا في الخـارج، وسـببوا بذلـك إشـكالات عظيمة وضلالاً مبينا!

ثـمَّ إنّا نبين لكم على تقسـيم المتكلمين ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق جلَّ وعلا بتلك الصفات، ووصف المخلوقين بتلك الصفـات، وبيان القرآن العظيم في أن صفة

خالـق السـماوات والأرض حـق، وأن صفـة المخلوق حق، وأنه لا مناسـبة بين صفة الخالق و بين صفة المخلوق، فصفة الخالـق لائقـةٌ بذاتـه، وصفة المخلوق مناسـبة لعجـزه وفناه وافتقـاره، وبيـن الصفـة والصفة مـن المخالفة كمثـل ما بين الـذات والذات؛ أما هذا الكلام الـذي يُدْرس في أقطار الدنيا اليوم في المسلمين؛ فإنَّ أغلبهم إنما يثبتون من الصفات التي يسمونها صفات المعاني، سبع صفات فقط، وينكرون سواها من المعاني ويؤولونها، وصفة المعنى عندهم في الاصطلاح ضابطها هي: ما دلَّ على معنىً وجودي قائم بالذات.

والذي اعترفوا به منها سبع صفات هي:

١. القدرة. ٢. الإرادة.

٣. العلم. ٤. الحياة.

٥. السمع. ٦. البصر.

٧. الكلام.

ونفوا غير هذه الصفات من صفات المعاني التي سنبيّنها ونبيّن أدلتها من كتاب الله..

وأنكر هذه المعاني السبعة (المعتزلة)، وأثبتوا أحكامها فقالوا هو: قادرٌ بذاته، سميعٌ بذاته، عليمٌ بذاته، حيٌّ بذاته، ولم يثبتوا قدرةً ولا علماً ولا حياةً ولا سمعاً ولا بصرا !

وهو مذهبٌ كلُّ العقلاءِ يعرفونَ ضلاله وتناقضه، وأنه إذا لم يقم بالذات علم؛ استحالَ أن تقول عالمةً بلا علم، وهو تناقضٌ واضحٌ بأوائل العقول.

صفات المعاني عند المتكلمين

فإذا عرفتم هذا، فسنتكلم على (صفات المعاني) التي أقرّوا بها، فنقول: وصفوا الله بالقدرة وأثبتوا له القدرة، والله جلَّ وعلا يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢٠] ونحن نقطع بأنّه جلَّ وعلا متَّصِفٌ بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة ٣٤] فأسند القدرة إلى بعضِ الحَوَادِث، ونسبها إليهم.

ونحن نعلم أن كلَّ ما في القرآن حق. وأنَّ للخالق جلَّ وعلا قدرةً حقيقة تليق بكماله وجلاله، كما أنَّ للمخلوقين قدرةٌ حقيقة مناسبةٌ لحالهم وعجزهم وفناهم وافتقارهم، وبين قدرة الخالق والمخلوق من المنافاة والمخالفة، كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، وحسبك بوناً بذلك!

ووصف نفسه جلَّ وعلا بالسمع والبصر في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج ٧٥] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١] ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان ٢] ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم ٣٨] ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق، فللّه جلَّ وعلا سمعٌ وبصرٌ حقيقيّان لائقان بكماله وجلاله كما أنَّ للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيّين مناسبين لحاله من فقره وفناه وعجزه، وبين سمع وبصر الخالق، وسمع وبصر المخلوق من المخالفة، كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وَصَفَ جلَّ وعلا نفسه بالحياة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ [البقرة ٢٥٥] ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر ٦٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان ٥٨] ووصف بعض المخلوقين أيضاً بالحياة قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء ٣٠] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم ١٥] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم ١٩].

ونحن نقطع بأن لله جل وعلا صفة حياة حقيقية، لائقةً بكماله وجلاله كما أنّ للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم وعجزهم وفناهم وافتقارهم، وبين صفة الخالق والمخلوق

من المخالفة، كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، وذلك بونٌ شاسع بين الخالق وخلقه.

وصف جل وعلا نفسه بالإرادة قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود ١٠٧] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢] ووصف بعض المخلوقين بالإرادة فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال ٦٧] ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب ١٣] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف ٨] ولاشك أن لله إرادةً حقيقية لائقة بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وفناهم وعجزهم وافتقارهم وبين إرادة الخالق والمخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وصف نفسه جل وعلا بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء ١٧٦] ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء ١٦٦] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف ٧].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم، فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات ٢٨] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف ٦٨] ولاشكَّ أنَّ للخالق جلَّ وعلا علما حقيقيا لائقا بكماله وجلاله محيطا بكل شيء، كما أنّ للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفناهم وافتقارهم وعجزهم.

* وبيـن علم الخالـق والمخلوق من المنافـاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وصف نفسه جلَّ وعلا بالكلام، قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء ١٦٤] وقال: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال ٦].

ووصف بعض المخلوقين بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف ٥٤] ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [يس ٦٥] ولا شك أن للخالق جلَّ وعلا كلاماً حقيقياً لائقاً بكمالِه وجلاله، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفناهم وعجزهم وافتقارهم.

* وبيـن كلام الخالـق والمخلوق من المخالفـة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هـذه صفات المعانـي، نظرتم ما في القرآن من وصف الخالـق بها ووصف المخلوق، ولا يخفى على عاقل أنَّ صفاتِ الخالـق حق، وأنَّ صفات المخلوقين حق، وأن صفات الخالـقَ لائقةٌ بجلاله وكماله، وصفات المخلوقين مناسبةٌ لحالهم، وبين الصفة والصفة كما بين الذات والذات.

الصفات السلبية عند المتكلمين

هذه الصفات التي يسمونها سلبية، و ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين، هي: الصفة التي دلت على عدم محض.

والمـراد بها: أن تدلَّ على سـلب مالا يليـق بالله عن الله، من غير أن تدل على معنى وجودي قائم[1] بالذات.

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية عندهم خمس: خمساً لا سادس لها، هي عندهم:

١. القدم ٢. البقاء

٣. المخالفة للخلق ٤. الوحدانية

٥. الغنى المطلق، الذي يسـمونه القيـامَ بالنفس، ويعنون به الاستغناء عن المخصّص والمحل.

---

(١) في الشريط: (زائد على الذات).

إذا عرفتم هذا فاعلموا أنَّ القِدَمَ والبقاء اللّذَيْن وصف بهما المتكلمون الله جلَّ وعلا، زاعمين أنه وَصَفَ نفسه بهما في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد ٣] قد وصف بهما المخلوق.

والقِدَمُ في الاصطلاح عندهم عبارة عن سلب العدم الأول ؛ إلا أنه عندهم أخصُّ من الأزل؛ لأنَّ الأزل عبارةٌ عمّا لا افتتاح له، سواءً كان وجودياً أو عدما.

والقِدَمُ عندهم عبارةٌ عمّا لا أوّل له بشرط أن يكون وجوديا كذات الله المتصفة بصفات الكمال والجلال، ونحن الآن نتكلم على ما وصفوا به الله جل وعلا من القِدَم والبقاء وإن كان بعض العلماء كَرِهَ وصفه جل وعلا بالقِدَمِ لما يأتي:

فالله جلَّ وعلا وَصَفَ المخلوقين بالقدَم فقال: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف ٩٥] ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس ٣٩] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء ٧٦] ووصف المخلوقين بالبقاء، قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات ٧٧] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل ٩٦].

أمّا الله جلّ وعلا فلم يصف في كتابه نفسه بالقِدَمْ، وبعض السلف كره وصفه بالقدم لتشبيهه بـ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس ٣٩] و ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف ٩٥] و ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء ٧٦] وقد جاء فيه حديث، بعض العلماء يقول: هو يدلُّ على وصفه بهذا، وبعضهم يقول: لم يثبت.

أمّا الأوليّة والآخريّة التي نصَّ الله عليهما بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد ٣] فقد وصف المخلوقين أيضا بالأولية والآخرية قال: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المرسلات] ولاشَّك أنَّ لله أولية وآخرية لائقتان بكماله وجلاله، كما أنّ للمخلوقين أولية وآخرية مناسبة لحالهم وفناهم وافتقارهم وعجزهم.

وصف نفسه بأنه واحد قال:﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل ٢٢] ووصف بعض المخلوقين بذلك قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد ٤].

وصف نفسه بالغنى ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم ٨] ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن ٦].

وصف بعض المخلوقين بالغنى، قال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء ٦] ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور ٣٢]

فهذه صفات السلب: جاءَ في القرآن وصفُ الخالق والمخلوق بها، ولا شكَّ أنّ ما وُصِفَ به الخالق منها لائقٌ بكماله وجلاله، وما وُصِفَ به المخلوق مناسبٌ لحاله وعجزه وفناه وافتقاره.

عدُّ الصفات السبع لا وجه له

ثم نذهب إلى الصفات السبع التي يسمّونها (المعنوية).

والتحقيق: أنَّ عدَّ الصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى «قادراً» و «مريداً» و«عالماً» و «حياً» و «سميعاً» و«بصيراً» و «متكلماً»، أنها في الحقيقة إنما هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبع التي ذكرنا، ومَن عدَّها من المتكلمين، عدّوها بناءً على وجود ما يسمّونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطةٌ ثبوتية، لا معدومةٌ ولا موجودة.

والتحقيق: أنَّ هذا خرافةٌ وخيال، وأنَّ العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطةً البتة، فكلُّ ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً، وكلُّ ما ليس بمعدوم فهو موجودٌ قطعاً، ولا واسطة البتة كما هو معروفٌ عند العقلاء.

فـإذاً قـد مثَّلنا بكونه قـادراً وحيّاً ومريداً وسـميعاً وبصيراً ومتكلماً، بما جاء في القرآن من وصف الخالق بذلك، وبيّنا أنّ صفـة الخالـق لائقةٌ بكماله وجلالـه، وأن صفة المخلوق مناسـبة لحـال وفناه وعجـزه وافتقـاره، فلا داعـي لأن ننفي وصـف رب السـماوات والأرض عنـه؛ لئلا نشـبهه بصفات المخلوقيـن؛ بل يلـزم أن نقرَّ بوصف الله، ونؤمن به في حال كوننا منزهين له عن مشابهة صفة المخلوق.

الكلام على صفات الأفعال

هذه صفات الأفعال، جاء في القرآن بكثرة وصف الخالق بها ووصف المخلوق، ولا شك أن ما وُصِفَ به الخالق منها مخالفٌ لما وُصِفَ به المخلوق، كالمخالفة التي بين ذات الخالق وذات المخلوق.

من ذلك: أنه وصف نفسه جل وعلا بصفة «الفعل» التي هو أنه يرزق الخلق، قال جلَّ وعلا: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ [الذاريات ٥٧] ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ ٣٩] ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة ١١]

وَصَفَ بعض المخلوقين بصفة الرزق قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النساء ٨] ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [النساء ٥] ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ﴾ [البقرة ٢٣٣]

ولا شك أن ما وُصِفَ الله به من هذا الفعل مخالفٌ لما وُصِفَ به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

وصف نفسه جلَّ وعلا بصفة الفعل الذي هو العمل قال: ﴿يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس ٧١].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور ١٦]

ولا شكَّ أن ما وُصِفَ الله به من هذا الفعل منافٍ لما وُصِفَ به المخلوق ومخالفٌ له، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

وصف نفسه بأنه «يُعلِّمُ خلقه»: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن].

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [اقرأ] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء ١١٣]. ووصف بعض خلقه بصفة «الفعل» التي هي «التعليم» أيضاً، قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة ٢] وجمع المثالين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة ٤]

وصف نفسه جل وعلا بأنه يُنبِّئ، ووصف المخلوق بأنه يُنبئ، وجمع بين صفة الفعل في الأمرين، في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم ٣] ولا شكَّ أن ما وُصِفَ الله به من هذا الفعل، مخالفٌ لما وُصِفَ به منه العبد كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

وصف نفسه بصفة «الفعل» الذي هو «الإيتاء» قال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة ٢٦٩] ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود ٣].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء ٢٠] ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء ٤].

ولا شكَّ أن ما وُصِفَ الله به من هذا الفعل مخالفٌ لما وُصِفَ به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

الكلام على الصفات الجامعة

ثمَّ نتكلم على (الصفات الجامعة)، «كالعلوّ» و «العِظَم» و «الكِبَر» و «الملك» و «التكبّر» و «الجبروت» و «العزة» و«القوة»، وما جرى مجرى ذلك من الصفات الجامعة، فنجد الله وصف نفسه بالعلوّ والعِظَم والكِبَر.

قال في وصف نفسه «بالعلوِّ والعِظَم»: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة ٢٥٥] وقال: في وصف نفسه «بالعلو والكبر»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء ٣٤] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد ٩].

وصف بعض المخلوقين بالعِظَم، قال: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء ٦٣] ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء ٤٠] ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل ٢٣].

وصف بعض المخلوقين بالعلو، قال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٧] ولا شكَّ أن ما وُصفَ الله به من هذه الصفات الجامعة، كالعلو والكِبَر والعِظَم منافٍ لما وُصفَ به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق جلَّ وعلا، فلا مناسبة بين ذات الخالق والمخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق والمخلوق.

وصف نفسه «بالمُلك»، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة ١] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر ٢٣] ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٥]

وصف بعض المخلوقين بالملك، قال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف ٥٠] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف ٤٣] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف ٧٩] ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران ٢٦] ولا شكَّ أن لله جل وعلا مُلكاً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين ملكا مناسباً لحالهم وفناهم وعجزهم وافتقارهم.

وصف نفسه بأنه جبار متكبر، قال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر ٢٣]

ووصف بعض المخلوقين بأنه جبّارٌ متكبّر، قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر ٣٥] ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء ١٣٠] ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر ٦٠] ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم ١٥]

ولا شك أن ما وُصِفَ به الخالق من هذه الصفات منافٍ لما وُصِفَ به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.

وصف نفسه جلَّ وعلا «بالعزة»، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان ٢٧] ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص ٩].

وصف بعض المخلوقين بالعزة، قال: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ [يوسف ٥١] ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص ٢٣].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون ٨].

ولا شك أنّ ما وُصِفَ الله به من هذا الوصف منافٍ لما وُصِفَ به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

وصف نفسه جلَّ وعلا «بالقوة»، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥٨] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠].

وصف بعض المخلوقين بالقوّة، قال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود ٥٢].

وفي قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ [الروم ٥٤].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت ١٥].

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون

ثمَّ إنّا نتكلم على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون، هل هي صفات فعلٍ أو صفات معنى؟

والتحقيق: أنّها صفات معانٍ قائمةٌ بذات الله جلَّ وعلا كـ: «الرأفة» و «الرحمة» و «الحِلْم»، فنجده جلَّ وعلا وصف نفسه بأنه «رؤوفٌ رحيم»، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل ٨]

ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال في وصف نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

ووصف نفسه بـ «الحِلْم»، قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج ٥٩] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟

أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ١٣٥] ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٦٣].

وصف بعض المخلوقين بالحلْم، قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات ١٠١] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة ١١٤].

وصف نفسه بـ «المغفرة»، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة ١٧٣] ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران ١٢٩]

وصف بعض المخلوقين بالمغفرة، قال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى ٤٣] ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ [البقرة ٢٦٣] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية ١٤].

ولا شَّك أن ما وُصفَ به خالق السماوات والأرض من هـذه الصفات أنه حقٌّ لائقٌ بكماله وجلاله؛ لا يجوز أن يُنفى خوفاً من التشبيه بالخلق، وأن ما وُصِفَ بـه الخلق من هذه الصفات حق، مناسبٌ لحالهم وفناهم وعجزهم وافتقارهم.

* وعلـى كلِّ حـال، فـلا يجـوز للإنسـان أن يتنطّـع إلـى وصـفٍ أثبته الله جلَّ وعلا لنفسـه، فينفي هـذا الوصف عن الله، متهجّماً على ربِّ السـماوات والأرض، مُدّعياً عليه أنَّ هذا الوصف الذي تمدّح به، أنه لا يليق به، وأنه هو ينفيه عنه، ويأتيه بالكمال من كيسـه الخاص، فهذا جنونٌ وهوس ! ولا يذهب إليه إلّا من طَمَسَ الله بصائرهم.

إثبات صفة الاستواء

وسنضربُ لكم لهذا مثالاً يتبيّن به الكل؛ لأنَّ مثالاً واحداً من آيات الصفات ينسحبُ على الجميع؛ إذ لا فرق بين الصفات، لأنَّ الموصوف بها واحد، وهو جلَّ وعلا لا يشبهه شيءٌ من خلقه في شيءٍ من صفاته البتّة.

فهذه «صفة الاستواء» التي كثر فيها الخوض ونفاها كثيرٌ من النّاسِ بفلسفةٍ[1] منطقيّة، وأدلّةٍ جدلية، ستتكلم في آخر البحث على وجوه إبطالها، كلاماً يَخُصُّ الذين درسوا المنطق والجدل، ليتبيّنوا كيف استدلّوا بالباطل وأبطلوا به الحق، وأحقّوا به الباطل.

هذه «صفة الاستواء» تجرّأ الآلاف ممّن يدّعونَ الإسلام ونفوها عن ربِّ السماوات والأرض بأدلّةٍ منطقية، يُركبونَ

---

(١) وفي الشريط: (بأقيسة منطقية).

فيها قياساً استثنائياً مركباً من شرطيّةٍ متّصلةٍ لزومية، يستثنون فيه نقيض التالي، ينتجون بزعمهم الباطل النقيض المقدّم، بناءً على أنَّ نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم، فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه والعرش مخلوق، لكان مشابهاً للخلق في استوائه على العرش!

أوّلاً: اعلموا أنّ هذه الصفة التي هي «صفة الاستواء» هي صفة كمالٍ وجلال، تمدّح بها ربُّ السماوات والأرض، والقرينة علىٰ أنها صفة كمالٍ وجلال، أنَّ الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلّا مصحوبةً بما يَبْهَرُ العقول من صفة كماله وجلاله التي هي منه، وسنضرب لكم مثلاً لذلك بذكر الآيات..

أوّلُ سورةٍ ذَكَرَ الله فيها صفة الاستواء هي سورة الأعراف:

الموضع الأول: قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٤].

هل لأحدٍ أن ينفيَ بعض الصفات الدّالة على هذا من الكمال والجلال؟!

الموضع الثاني: قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس].

فهل لأحدٍ أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدّالة على هذا من الكمال والجلال؟!

الموضع الثالث: قال جلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ

ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

فهل لأحدٍ أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدّالة على هذا من الكمال والجلال؟!

الموضع الرابع: في سورة طه ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال؟

الموضع الخامس: في سورة الفرقان، في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال؟

الموضع السادس: في سورة السجدة، في قوله جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة].

هل لأحدٍ أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من غايات الكمال والجلال؟

الموضع السابع: في سورة الحديد،في قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد]

* فالشاهد: أنّ هذه الصفات التي يظن الجاهلون أنها صفةُ نقص، ويتهجمون على رب السماوات والأرض بأنه وصف نفسه صفة نقص مما يسببون عن هذا أن ينفوها، أو يؤولوها، مع أن الله جل وعلا تمدّح بها وجعلها من صفات الكمال والجلال، مقرونةً بما يَبهرُ العقول من صفات الكمال والجلال،وهذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله جلّ وعلا بالتأويل.

الكلام على التأويل الذي فتن به الخلق

ثم اعلموا أنّ هذا الشيء الذي يقال له «التأويل»، الذي فتن الله به الخلق وأضل به الآلاف المؤلفة من هذه الأمة، اعلموا أن التأويل يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معانٍ:

يطلق على «ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال»، وهذا هو معناه في القرآن، نحو: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء ٣٥] ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس ٣٩] ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف ٥٣].

أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

يطلق التأويل على «التفسير»، وهذا تأويل معروف، كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

أما في اصطلاح الأصوليين، فالتأويل هو: (صرف اللفظ

عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوحٍ لدليل[1]).

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاثُ حالات:

الأول: إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليلٍ صحيح من كتابٍ أو سُنّة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبولٌ لا نزاع فيه، ومثال هذا النوع، ما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «الجار أحق بصَقَبه»[2] فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار، وحمل هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسَم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أنّ حديث جابر الصحيح «فإذا ضُربت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة»[3] دلَّ على أن المراد بالجار الذي هو أحق بصَقَبِه خصوص الشريك المقاسم.

---

(١) وفي الشريط: (صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل).

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٩٣ (٦٩٨٠) ط المكتبة السلفية بتحقيق محب الدين الخطيب.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٩٢ (٦٩٧٦) ط المكتبة السلفية بتحقيق محب الدين الخطيب.

فهـذا النـوع من صرف اللفظ عن ظاهـره المتبادر منه لدليل واضح يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة، و هذا التأويل يُسمّى تأويلا صحيحاً، وتأويلاً قريباً، ولا مانع منه إذا دلّ عليه النص.

الثانـي: هو صـرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشـيءٍ يعتقـده المجتهـد دليلاً، وهو فـي نفس الأمر ليـس بدليل؛ فهـذا يسـمّى تأويـلًا بعيداً، ويقـال له فاسـد،ومثّل له بعض العلمـاء بتأويل الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - لفظ المرأة فـي قوله: «أيما امرأة نَكحت بغير إذن وليها فنكاحُها باطلٌ، باطـل»[1] قالوا: حمل هذا على خصـوص المكاتبة، تأويل بعيـد لأنه صـرف اللفظ عن ظاهره المتبـادر منه؛ لأن «أي» فـي قولـه «أي امرأة» صيغة عمـوم، وأُكِّـدت صيغة العموم بـ «مـا» المزيدة للتوكيد، فحمل هـذا على صورة نادرة هي المُكاتبة،حملٌ للّفظ على غير ظاهره بغير دليل جازمٍ يجب الرجوع إليه.

---

(١) رواه أبـو داود الطيالسـي في مسـنده ١/ ٣٩٥ (٢٠٦) وهذا لفظه، ورواه الخمسـة إلا النسـائي، وصححـه الألبانـي / إرواء الغليـل ٦/ ٢٤٣ طبعة المكتب الإسلامي بتاريخ ١٤٠٥ هـ.

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل، فهذا لا يُسمى تأويلاً في الاصطلاح، وإنما يقول له الأصُوليون لعب، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، ومن هذا تفسير غلاة الروافض لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ [البقرة ٦٧] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم استوى بمعنى استولى، فهذا لا يدخل في اسم التأويل لأنه لا دليل يدلُّ عليه البتّة، وإنما يسمى هذا في اصطلاح أهل الأصول لعب؛ لأنه تلاعب بكتاب الله جلّ وعلا من غير دليل ولا مستند.

فهذا النوع لا يجوز، لأنه تهجم على كلام رب العالمين، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيءٍ من كتاب الله و لا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

اعتقاد التشبيه أولاً هو سبب التعطيل

* وكلّ هذا الشر يا إخواني - اسمعوا نصيحة مشفق - كلّ هذا الشر إنما جاء من مسألةٍ وهي نجس القلب وتلطّخه وتنجسه بأقذار التشبيه ، فإذا سمع القلب المتنجّس بأقذار التشبيه صفةً من صفات الكمال أثنى الله بها على نفسه كنزوله للسماء الدنيا في ثُلُثِ الليل الأخير، وكاستوائه على عرشه، وكمجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من صفات الكمال والجلال؛ أوّل ما يخطر في ذهن المسكين أن هذه الصفة تشبه صفة الخلق، فيكون قلبه متنجّساً بأقذار التشبيه، لا يقدِرُ الله حق قدره، ولا يُعظّم الله حق عظمته، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون مُشبهاً أولاً، نجس القلب متقذره بأقذار التشبيه، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق جلّ وعلا عنه بادعاء أنها تشبهُ صفة المخلوق، فيكون مشبها أولاً، معطلاً ثانياً، ضالاً

ابتداءً وانتهاءً، متهجماً على رب العالمين بنفي صفته عنه، وادعاء أن تلك الصفةَ لا تليق.

واعلموا أن هنا قاعدةً أصولية، أطبق عليها من يُعتدّ به من أهل العلم، وهي أن النبي صلوات الله وسلامه عليه، لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة،ولا سيّما في العقائد، ولا سيما لو مشينا على فرضهم الباطل أنَّ مثلاً ظاهر آيات الصفات الكفر، فالنبي ﷺ لم يؤولِ الاستواء بالاستيلاء، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات.

ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبي ﷺ إلى بيانها، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فالحاصل: أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد، الذي يحل جميع الشُبَه، ويجيب عن جميع الأسئلة، أن الإنسان إذا سمع وصفاً وصف به خالق السماوات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ أن يمتلئَ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغٌ من غايات الكمال والشرف والعلو، ما يقطع به جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب منزّهاً معظماً لله جل

وعلا، غير متنجّس بأقذار التشبيه، فتكون أرض قلبه قابلةً للإيمان والتصديق بصفات الله التي تَمَدّحَ بها نفسه، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

والشرّ كلّ الشرِّ في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوة الكاذبة الفاجرة الخائنة.

نقطتين هامتين

ولابدّ في هذا المقام من نُقطٍ يتنبه لها طالب العلم:

أولاً: أن يعلم طالب العلم أن جميع الصفات من باب واحد، إذ لا فرق بينها البتّة، لأن الموصوف بها واحد وهو جلّ وعلا، لا يُشبه الخلق في شيءٍ من صفاتهم البتّة.

فكما أنكم أثبتم له جلّ وعلا سمعاً وبصراً لائقين بكماله وجلاله، لا يشبهان شيئاً من أسماء الحوادث ولا أبصارهم، فكذلك يلزم أن تجروا مثل هذا بعينه في صفة

الاستواء، والنزول، والمجيء، إلى غير ذلك من صفات الكمال والجلال التي أثنى الله بها على نفسه، واعلموا أن رب السماوات والأرض يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يلزمه محذور، أو يلزمه محال، أو يؤدي إلى نقص، كلّ ذلك مستحيلٌ عقلاً؛ فإن الله لا يصف نفسه إلا بوصف بالغ من الشرف والعلو والكمال، ما يقطع جميع أوهام علائقَ المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

الثاني: أن تعلموا أن الصفات والذات من بابٍ واحد، فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا إثبات وجودٍ وإيمان، لا إثبات كيفيةٍ مكيّفةٍ محدّدةٍ، فكذلك نثبت لهذه الذات الكريمة المقدسة الصفات، إثباتَ إيمانٍ ووجود، لا إثبات كيفية وتحديد.

هل آيات الصفات من المتشابه؟

* واعلموا أن آيـات الصفات كثيرٌ من الناس يطلق عليها اسم المتشابه، وهذا من جهةٍ غلطٌ، ومن جهةٍ قد يسوغ، كما بينه الإمام مالك بن أنس أن المعاني فهي معروفة عند العرب، كمـا قال الإمام مالـك بن أنس - رحمه الله-: الاسـتواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة.

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معلوم، والسؤال عنه بدعة.

واطْرُدهُ في جميع الصفات، لأن هذه الصفات معروفةٌ عند العـرب؛ إلا أن ما وُصف به خالق السـماوات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق جلّ وعلا حق، والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق جلّ وعلا أكمل وأنزه وأجلّ من أن تُشـبِهَ شيئاً من صفات المخلوقين.

فعلى كلّ حال: الشرّ كل الشر في تشبيه الخالق بالمخلوق، وتنجيس القلوب بقذر التشبيه.

فالإنسان المسلم إذا سمع صفةً وُصف بها الله، أول ما يجب عليه: أن يعتقد أن تلك الصفة بالغةٌ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فتكون أرض قلبه طيبةً طاهرةً قابلةً للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

سؤال مهم

وهنا سؤالٌ لا بد من تحقيقه لطالب العلم..

أولاً: أن يعرف أن المقرر في الأصول في اللفظ أنه إذا دلّ على معنى لا يحتمل غيره، يسمونه «نصاً» كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ [البقرة ١٩٦]

فإذا كان يحتمل معنيين فلا يخلو من حالتين:

- إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر.
- وإما أن يتساوى بينهما.

فـإن كان الاحتمـال يتسـاوى بينهمـا فهـذا الذي يسـمّى فـي الاصطـلاح: «المجمل»، كما لو قلـت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد).

فإنــه يحتمـل أن تكـون عينـه الباصـرةَ عوّروهـا، أو عينه الجاريـةَ غوّروهـا، أو عينـه ذهبـه وفضتـه سـرقوها، فهـذا «مجمل»

وحكم المجمل: أن يُتوقف عنه إلا بدليل على التفصيل.

أمـا إذا كان نصـاً صريحـا، فالنّـص يُعمـل بـه، ولا يُعدل عنه إلا بثبوت النسـخ، أمـا إذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهـو المسـمى بالظاهـر، ومقابله يسـمى محتمـلاً مرجوحاً، والظاهـر: يجب الحمل عليـه إلا لدليل صـارفٍ عنه. كما لو قلـت: رأيتُ أسـداً. فهذا مثلاً ظاهرٌ فـي الحيوان المفترس، محتملٌ للرجل الشجاع.

إذاً نقـول: ما الظاهر المتبادر من آيـات الصفات من نحو قولـه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتـح ١١]، وصفـة النـزول، وصفة المجيء، وما جرى مجرى ذلك؟

هـل نقـول أن الظاهر المتبادر من هذه الصفة هو مشـابهة الخلق! حتى يجب علينا أن نؤول فنصرفه عن ظاهره؟

أو هو تنزيه رب السماوات والأرض حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه؟

الجواب: أن كلّ وصفٍ أُسـند لرب السماوات والأرض فظاهـره المتبـادر منه عند كل مسـلم هو التنزيـه الكامل عن مشـابهة الخلـق، فإقـراره على ظاهـره هو الحق، وهـو تنزيه رب السـماوات والأرض عـن مشـابهة الخلق في شـيء من صفاتهم.

وهـل يُنكِـر عاقـلٌ أن المتبادر إلـى الأذهان السـليمة، أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته؟

لا والله. لا يعارض في هذا إلا مكابر..

الردُّ على المتكلمين وإلزامهم بمقتضى قواعدهم

ثـمَّ بعد هـذا المبحث الـذي ذكرنا، نحـب أن نذكر كلمة قصيـرة لجماعة نراهم قرأوا في المنطق والكلام، وظنوا نفي بعض الصفات من أدلة كلامية..

كالذي يقول مثلاً: لو كان مستوياً على العرش - والفرض أن العرش مخلوق - لكان مشابهاً للحوادث، لكنه غير مشابهٍ للحوادث، ينتج: فهو غير مستوٍ على العرش.

هذه النتيجة الباطلة تضاد سبعَ آيات من الُمحكَم المُنزّل، ولكننا الآن نقول هذا على طريق المناظرة والجدل المعروف عند المتكلمين.

نقـول: هـذا قيـاس اسـتثنائي مركـب مـن شـرطيةٍ متصلة لزومية، اُسـتثنيَ فيه نقيـض التالي، فأُنتج منـه نقيضَ المقدّم حسب ما يراه مقيم هذا الدليل.

ونحـن نقـول: إنـه تقـرر عنـد عامـة النظّـار أن القيـاس الاسـتثنائي المركب من شـرطية متصلة لزوميـة يَتوجهُ عليه القدح من ثلاث جهات:

- يتوجه عليه من جهة استثنائيته.
- ويتوجـه عليه من جهة شـرطيته إذا كان الربط بين المقدّم والتالي ليس بصحيح.
- ويتوجه عليه القدح من جهتهما معاً.

وهذه القضية الكاذبة الشرطية، فالربط بين مقدّمها وتاليها كاذبٌ كذباً بحتاً، ولذا جاءت نتيجتها مخالفةً لسبع آيات.

إيضاحـه أن نقـول: قولكـم لو كان مسـتوياً علـى العرش لـكان مشـابهاً للحـوادث، هـذا الربـط بيـن «لـو» و «اللام» كاذبٌ، كاذبٌ، كاذبٌ.

بـل هـو مسـتوٍ علـى عرشـه كمـا قـال، مـن غير مشـابهةٍ للحـوادث، كمـا أن سـائر صفاتـه واقعـة كما قـال، من غير مشابهةٍ للخلق.

ولا يلزم من استوائه على عرشه كما قال، أن يشبه شيئاً من المخلوقيـن في صفاتهم البتّة، بل اسـتواؤه صفة من صفاته،

وجميع صفاته مُنزّهة عن مشابهة الخلق، كما أن ذاته منزّهة عن مشابهة ذوات المخلوق، ويطّردُ هذا في مثل هذا.

وعلى كل حال فالجواب عن شيء واحد من هذا يطّرد في الكل.

خاتمة بها نقاط مهمة

وآخر ما نختم به هذه المقالة أنّا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١] فتنزهوا رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق.

الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١] فتؤمنوا بصفات الكمال والجلال الثابتة في الكتاب والسنة على أساس التنزيه، كما جاء في ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١] بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١].

النقطة الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه ١١٠].

فقولـه: ﴿يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ [طه ١١٠] فعـل مضارع، والفعل الصناعي الذي يُسمّى بالفعل المضارع، وفعل الأمر، والفعل الماضي، ينحلُّ عند النحويين عن مصدرٍ وزمن، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

المَصْدَرُ اسمُ ما سِوَى الزمانِ منْ
مَـدْلُولَي الفعـلِ كَأَمْنٍ من أَمِنْ

وقد حرَّرَ (علماء البلاغة) في مبحث (الاستعارة التبعية) أنـه ينحـل عـن مصـدر وزمـن ونسـبة، فالمصدر كامـلٌ في مفهومه إجماعاً.

فـ «يحيطـون» تكمن فـي جوفها الإحاطـة، فيتسـلّط النفي علـى المصـدر الكامل فـي الفعل، فيكـون معه كالنكـرة المبنية علـى الفتـح[١]، فيصيـر المعنـى لا إحاطـة للعلم البشـري برب السماوات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها[٢].

---

(١) في الشريط: (فيكون مثلاً يُبنى معه على الفتح).

(٢) فـي الشـريط: (لا إحاطة علـم بـرب السـماوات والأرض، فينفي جنس أنواع الإحاطة من كيفيتها).

فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، فلا يُشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء، ولا صفة يد، ولا أصابع، ولا عجب، ولا ضحك، لأن هذه الصفات كلها من باب واحد، فما وصف الله به نفسه منها فهو حق، وهو لائقٌ بكماله وجلاله، لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وما وُصف به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفناهم وافتقارهم، وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تنزيه بلا تعطيل.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إيمانٌ بلا تمثيل.

فيجب من أول الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الإيمان بجميع الصفات، الذي ليس فيه تمثيل، فأول الآية تنزيه، وآخرها إيمان، ومن عمل بالتنزيه الذي في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والإيمان الذي في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقطَع النظر عن إدراك الكنه، والكيفية

المنصوص[1] في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

خرج سالماً، وقد ذكرت لكم مراراً أني أقول: هذه الأسس الثلاثة التي ركزنا عليها البحث، وهي:

- تنزيه الله عن مشابهة الخلق.
- والإيمان بالصفات الثابتة في الكتاب والسنة.

وعدم التعرض لنفيها، وعدم التهجم على الله بنفي ما أثنى به على نفسه، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية.

لو مِتّم يا إخوان وأنتم على هذا المعتقد أترون أن الله يوم القيامة يقول لكم: لِمَ نزّهتموني عن مشابهة الخلق؟ ويلومكم على ذلك ؟

لا وكلا والله لا يلومكم على ذلك.

أترون أنه يلومكم على أنكم آمنتم بصفاته، وصدقتموه فيما أثنى به على نفسه، ويقول لكم: لم تثبتون لي ما أثبت لنفسي، أو أثبته لي رسولي؟

لا والله لا يلومكم على ذلك، ولا تأتيكم عاقبة سيئة من ذلك.

(١) في الشريط: (والحقيقة المنصوص).

كذلك لا يلومكم الله يـوم القيامة ويقول لكم: لِمَ قطعتم الطمع عن إدراك الكيفية، ولم تحددوني بكيفيّة محددة؟

ثـم إنّا نقول: لو تنطّـعَ متنطّعٌ، وقال: نحـن لا ندرك كيفيّة نزولٍ منزهةً عن نزول الخلق، ولا ندرك كيفيّة يد منزّهة عن يد الخلقِ، ولا ندرك كيفيّة استواءٍ منزّهةً عن استواءات الخلق.

فبيّنوا لنا كيفيّة معقولة منزّهة تدركها عقولنا..

فنقـول **أولاً**: هـذا السـؤال الذي قال فيه مالـك بن أنس- رحمه الله-: والسؤال عن هذا بدعة.

ولكن نجيب ونقول: أعرفت أيها المتنطّع السـائل الضال كيفيّة الذات المقدّسة الكريمة المتصفة بصفة النزول، وصفة اليـد، وصفـة الاسـتواء، وصفة السـمع، والبصـر، والقدرة، والإرادة، والعلم ؟

فلا بدّ أن يقول: لا..

فنقـول: معرفـة كيفيّـة الصفـة متوقفة علـى معرفـة كيفيّة الذات، إذ الموصوفات تختلف باختلاف ذواتها.

ونضرب مثلاً، ولله المثل الأعلى؛ فإن الأمثال لا تضرب

لله، ولكن الأحرَوِيّات لا مانع منها كما جاء بها القرآن.

فنقول مثلاً كما قال العلامة ابن القيّم - رحمه الله -:

لفظةُ رأسٍ.

الراء، والهمزة، والسين: رأس.

هذه الكلمة أضفها إلى المال، وأضفها إلى الوادي، وأضفها إلى الجبل.

قل: رأس المال، رأس الوادي، رأس الجبل.

فانظر ما صار من الاختلاف بين هذه المعاني بحسب هذه الإضافات، وهذا في مخلوق ضعيف مسكين، فما بالك بالبَونِ الشاسع الذي بين صفة الخالق جلّ وعلا وصفة المخلوق؟

وختاماً يا إخوان نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله[1]، وأن تتمسّكوا بهذه الكلمات الثلاث:

---

(١) من قوله: وأن تتمسكوا.. الخ، مقطوع في التسجيل المنشور على الشبكة باسم «محاضرة الصفات للأمين الشنقيطي» وتمَّ نقله من كتاب «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» من مطبوعات الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٥ هـ، وقد أُلقيت المحاضرة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة.

١. أن تنزهوا ربكم عن مشابهة صفة الخلق.

٢. أن تؤمنوا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبنيّاً على أساس التنزيه على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

٣. أن تقطعوا الطمع في إدراك الكيفية لأنّ الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه ١١٠].

ونريد أن نختم هذه المقالة بنقطتين:

إحداهما: أنه ينبغي للمؤولين أن ينظروا في قوله تعالى لليهود: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ فإنهم زادوا في هذا اللفظ المنزل نوناً، فقالوا: حنطة فسمّى الله هذه الزيادة تبديلاً، فقال في البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة ٥٩]، وقال في الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف ١٦٨].

وكذلك المؤولون للصفات قيل لهم استوى. فزادوا لاماً، فقالوا: استولى.

فانظر ما أشبهَ لامهم هذه التي زادوها بنون اليهود التي زادوها، ذكر هذا ابن القيّم.

الثانية: أنه ينبغي للمؤولين أن يتأملوا آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان ٥٩] ويتأملوا معها قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر ١٤] فإن قوله تعالى في الفرقان: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، بعد قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يدلُّ دلالةً واضحة أنّ الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه لا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها، ويُفهَمُ منه أن الذي ينفي عنه صفة الاستواء ليس بخبير، نعم. هو والله ليس بخبير.

وصلى الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، سبحان ربك ربِّ العزة عمّا يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين.



pub@gph.gov.sa